البنيوية:مقاربة في الأصول الفلسفيّة وقراءة في المرجعيات النقديّة

Structuralism : An Approach to Philosophical Origins and as an Insight into Critics references

ط/آسيا حمادي*

أ.د/ أحمد حاجي♣

تاريخ الإرسال: 2021/01/21	تاريخ القبول: 2021/04/28	تاريخ النشر: 2021/09/15

الملخص:

البنيوية تصوّر معرفيّ و فكرٌ فلسفيّ اعتقدهُ الكثير من الفلاسفة والباحثين. إنها ثمرة إيديولوجيات غربيّة كثيرا ما تسلّحت بها نظريات المعرفة لدى ثقافة الآخر. إنها تسعى للبحث في طبيعة الأشياء، وتحاول التركيز على خاصيتي الكلية والشمولية.

وإذا كان الكثير من الفلاسفة والباحثين يعتقدونها مذهبا فلسفيا لها علائقها بالإيديولوجيا والأنثروبولوجيا والمثالية والمادية فهل هذا ينفي صلتها بالنّقد الأدبيّ ؟ ثمّ هل أسهمت في إثراء مجال النقد ودعمه بالوسائل والتقنيات لتغدوَ في الأخير منهجا نقديّا له آلياته ضوابطه؟

الكلمات المفتاحية : البنيوية، الكلية، الشمولية، النقد الأدبيّ، المنهج النّقديّ.

Abstract

Structural perception of big amount of knowledge and philosophical thinking is thought of by a lot of philosophers and researchers. That reflects the fruit of Western ideologies that are often equipped with the theories of knowledge of other cultures. That reflects an attempt to look at the nature of things, and to a focus on global and holistic characteristics.

And if several philosophers and researchers believe it is a philosophical doctrine that has to do with ideology, anthropology, idealism and materialism. Does that exclude its connection to literary criticism? Has it contributed to the enrichment of the field of criticism through tools and

المؤلف المرسل: آسيا حمادي hammadi.assia@univ-ouargla.dz

* جامعة قاصدي مرباح، ورقلة (الجزائر) hammadi.assia@univ-ouargla.dz

♣ جامعة قاصدي مرباح، ورقلة (الجزائر) hadji.ah@univ-ouargla.dz

techniques to make it a critics approach with its own effective mechanisms?
Keywords: *Structuralism, holistic, global, literary criticism, critical approach.*

*** *** ***

مُقدّمـــة:

أثارت قضيةُ البنيوية الكثيرَ من الجدل والنقاش بين المفكّرين والباحثين في رحاب المعرفة، ويتعلّق الجدلُ بالجذور الفلسفية للبنيوية، فيرى البعض بأنّها منهج نقديٌّ له آلياته و إجراءاته التي يتعاملُ بها لتشريح وتفكيك النصوص الأدبية، وهي من ناحية أخرى وليدة اللسانيات الحديثة، بينما يعتقد البعض – وهم كُثُر- أنّ لها جذورًا فلسفيةً، بل هي فلسفةٌ في حدّ ذاتها، ظهرت كبديل في زمن البدائل، وثورةً على فلسفات أخرى كالوجودية و المثالية...

و عليه، فإنّ هذه الدراسة تحاولُ الوقوفَ على هذه الإشكالية للكشف عن معالمها، والنّبش في أسسها الفلسفية، وذلك من منظور فلسفي لا نقديّ، وإذا كان الكثير من المفكّرين والنّقّاد يُرجعون فضل ميلاد البنيوية إلى اللسانيات الحديثة، فإنّ هذا لا يعني البحث في أصولها وإيديولوجياتها الفلسفية.

1/ الأصول المعرفية والفلسفية للبنيوية:

لعلّ ميلاد كثير من العلوم لم يأتِ عبثًا أو صدفةً، بل كان نتاجًا لتراكمات معرفية و إبستمولوجية، أو ثمرةً لأسس وإيديولوجيات فلسفية ما، كما هو الشأنُ بالنسبة للبنيوية، إذْ مِن العبث القول بتحديد الإرهاصات الأولى لفلسفة البنيوية، ذلك أنها انطلقت من فلسفات مختلفة ومتباينة . وقد نفى "ميشال فوكو" كونها فلسفةً واضحةَ المعالم، ثابتةَ المرجعية، يقول: "ليست البنيوية – كما نعلمُ- فلسفة، إنّما يمكنُ أن تُربط بفلسفات مختلفة. فقد ربط "لفي ستروس" بوضوح منهجية البنيوية بفلسفة مادية الطابع، وعلى عكس ذلك، قام "جيرو" بربط طريقته الشخصية في التحليل البنيوي بفلسفة مثالية، في حين يستعمل "ألتوسير" مفاهيم التحليل البنيوي داخل فلسفة من الواضح أنها ماركسية الاتجاه. لهذا لا أعتقد أنّ بإمكاننا إثبات وجود رابط وحيد وحتميّ بين البنيوية والفلسفة"[1].

يُشيرُ تصوّرُ "فوكو" إلى تعدّد الرؤى التي تنطلق فيها البنيوية وتنوّع الإيديولوجيات التي تأسّست عليها، ذلك أنّها ترتبط تارةً بالفلسفة المادية، وتارة أخرى بالفلسفتين المثالية

والماركسية، لذا من الصعب تحديد خلفيتها وضبط مسارها، إلا أنّه من الواجب الإقرار بعدم فوضويتها والاعتراف بالمنهل الذي نهلت منه وقامت على دعائمه.

إنّ أيّ علم من العلوم لابدّ أن ينبني على إبستمولجيات وتصوّرات معيّنة، وليس عبثًا أن يولَد اعتباطًا أو صُدفةً، فالفكر البنيوي مشروعٌ فلسفيٌ له أسسه و خلفياته، ولا بدّ من الاعتقاد بفلسفته، كما يرى فؤاد زكرياء لمّا صرّح قائلا: "بلغت البنائيةُ من حيث هي اتجاهٌ فكريٌ وفلسفيٌ ذروتها في السنوات الأخيرة من الستينات في هذا القرن، وكان من الشائع في أوساط المثقّفين أن يُنظر إليها على أنّها مذهبٌ فلسفيٌ"[2].

إذًا، هو اعترافٌ من زكرياء بفلسفة البنيوية، ذلك أنّها تتميّز بالشمولية أو الكلية، وهذا الذي يسعى إليه أيّ تيارٍ أو مذهب فلسفيّ، يردفُ زكرياء تصوّره قائلاً : "ومن سمات المذهب الفلسفيّ أيّا كان أنّه يسعى بقدر إمكانه إلى الشّمول، ويستهدف تقديم تفسير موحّد لمجموعة كبيرة من المشكلات الفكرية، ويضمّ مجالات معرفية متعدّدة في إطار نظرة واحدة إلى العالم وإلى طبيعة الأشياء، وبالفعل وصل مدّ البنائيّ في فترة الذّروة هذه إلى ميادين شديدة التنوّع"[3].

يتبيّن من خلال هذا التّصوّر أنّ البنيوية مذهبٌ أو اتجاهٌ فلسفيٌ، متعدّد الزوايا، متنوّع المجالات. وقد دافع زكرياء عن هذا التصوّر مُلخّصًا بعض الميادين التي وصل إليها مدّ البنيوية قائِلًا: "... ففي مجال اللغويات كان جاكبسون وشومسكي يقودان حركة نشطة اتّخذ منها الكثيرون نموذجًا ومثالًا يُحتذى في ميادين أخرى. وفي ميدان التحليل النفسي كان "لاكان" يشدّ انتباه معاصريه بنظرته الجديدة إلى هذا العلم الذي كان يبدو قبل نشر بحوثه في حالة ركودٍ نسبيّ. وفي النقد الأدبي كان "بارث" يفتتحُ عددًا جديدًا في تفسير النّصوص على أساس بنائيّ. وفي الميدان الفلسفي كان مفكّر ميّال إلى المحافظة مثل "فوكو" يُبهرُ جماهير المثقفين برؤيته الجديدة في كتابه المشهور "الكلمات و الأشياء"، على حين أنّ مفكّرًا ماركسيًا هو "ألتوسير" كان يُعيدُ قراءة الأصول الكبرى للفلسفة الماركسية، وخاصة كتاب "رأس المال" ذاته، من خلال تفسير بنائيّ مبتكر، وقبل هؤلاء جميعًا، كان "لفي ستروس" يُواصلُ جهوده الرائدة التي كان قد بدأها قبل هذا التاريخ بما يقربُ عشرين عامًا"[4].

إنّ المتأمّل في نصّ زكرياء يتراءى له ميزة الشمولية التي تسعى إليها البنيوية كمشروع فلسفي، وبخاصة في كيفية الإحاطة ببعض العلوم والمعارف ومحاولة تقوية الروابط والصلات بينها، وبالتالي ينتج في الأخير نوعٌ من التراكم المعرفيّ الذي جعل البنيوية تقفُ على ساعدها وتُثبتُ أحقّيتها في الوجود. لكن علاقة البنيوية بمجال النقد الأدبي تجعل منها منهجًا نقديًا في تشريح أو تفكيك النصوص والآثار الأدبية.

يُقرّ الكثيرُ من الباحثين والمفكّرين أنّ البنيوية قامت على دعائم وخلفيات فلسفية، وهي إحدى الفلسفات الغربية الحديثة التي تحتلّ الصّدارة في أطروحات الفكر الحديث، ولا بدّ من الاعتراف هنا بأنّ البنيوية "هي آخر الاتجاهات الفلسفية التي انتهى إليها الفكر الإنساني بعد أن تعلّق طويلًا باتجاهين: اتجاه إلى الذات الشخصية واعتبارها محور التّأمّل الفلسفيّ، واتجاه آخر مضادٌ لا يُعنى بغير الظواهر المحسوسة، ويؤدي إلى ظهور الفلسفة الوضعية ثم الوضعية المنطقية بصورها العديدة"[5].

لقد تعلّق فكرُ الإنسان قديمًا بالاتجاهين الفلسفيين طويلًا، الاتجاه الذاتي (الأنا) أو الذات، والاتجاه الوضعي الذي يشتغلُ بالظواهر أو العلاقات بين الأفراد والمجتمعات (النحنُ)، لكن فلسفة البنيوية لا تُعنى بهذا أو ذاك، إنّما جاءت ثورةً على الاتجاهين، "بل هي تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك، لأنها تريدُ الكشفَ عن باطن الظواهر أو البنية التي تؤسسها"[6].

يُصرُّ فؤاد زكرياء بمقولة فلسفة البنائية أو البنيوية، كيف لا؛ وقد أصدر كتابًا موسومًا بـ"الجذور الفلسفية للبنائية"، وهو في ذلك يربطها بفلسفة كانط، وهي أعرقُ بكثير من زمن ظهورها، "فالبنائية – مثل فلسفة كانط- تبحثُ عن الأساس الشامل اللازمانيّ، الذي ترتكزُ عليه مظاهر التجربة، وتؤكّد وجود نسقٍ أساسيّ ترتكزُ عليه كلّ المظاهر الخارجية للتاريخ، وهذا النّسق سابقٌ على الأنظمة البشرية، بحيث تستندُ إليه تلك الأنظمة زمنيًا ومكانيًا، أي أنّ هذا النسق قبليٌ La priori بمعنى مشابهٌ لما نجدهُ عند كانط"[7].

لقد أفرط زكرياء في طرحه هذا، الأمرُ الذي جعل تصوره هذا محطّ نقاش الكثير من الباحثين والمفكرين، فــ عبد الغني بارة يحاولُ إزالة بعض اللّبس وفكّ الغموض على هذه الفكرة، وذلك بإبداء رأيه، قائلا: "... أي أنّ بنيوية ستراوش وفوكو لا يستقيمُ لها وجودٌ

إلا في أصل فلسفيّ يقفُ وراء بروزها واكتمالها منهجًا نقديًا في القرن العشرين، وهذا ما يتنافى وما أقرّه المشتغلون بالدّرس النقدي من أنّ البنيوية ظهرت إلى الوجود كردّ فعليّ لصعود نجم الدراسات اللغوية على يد العالم السويسري فرديناند دي سوسير، وليس نتيجة لمذهب كانط الفلسفي، إذ كيف يكونُ كذلك والفلسفة الكانطية بقيت متداولة في الفكر الفلسفي زهاء القرنين، ولم تُثمر بنيويةً خالصةً"[8].

إنّنا نلمس نوعًا من الموضوعية في طرح عبد الغني بارة، إذ لا يُمكن المُبالغة بمقولة فلسفة البنيوية، وإلا كيف أصبحت هذه الأخيرة في القرن العشرين وما بعده منهجًا نقديًا له آلياته وإجراءاته يتعامل بها مع النصوص الأدبية، ثمّ لا بدّ من الاعتراف من زاوية أخرى بمقولة علاقة البنيوية باللسانيات، التي مهّدت للبنيوية سُبُل البروز، وعبّدت لها الطريق للعلمية والشمولية، وعلى الرغم من ذلك إلا أنها كانت وليدة فلسفات مختلفة، "أي من الفلسفة التجريبية على يد "لوك" وَ"هْيُوم"، مُرورًا إلى الفلسفة العقلية (المثالية) على يد "كانط" و"هيغل" و"ديكارت"، وصولًا إلى الفلسفة الظاهراتية عند "نيتشه" و"هوسرل" وهيدغر""[9].

وكما جرت السُّنّة، لا بدّ لأيّ علم من العلوم أو مذهب من المذاهب مهما كانت فلسفته أو أن يمرّ بمسار أو حركيّة معيّنة من خلالها يمكنُ له البروز أو إثبات وجوده، كما هو الأمر بالنسبة لفلسفة البنيوية كمشروع حداثيّ، إذ غدا بديلًا في عصر البدائل، جديدًا في زمن التراكم المعرفي، وهذا الذي أشار إليه الزواوي بغورة بقوله: "ومن بين هذه الأشكال الفلسفية الجديدة، والقائمة على العلم، تحتلّ البنيوية مكان الصّدارة، وذلك لتصدّيها لكلّ الفلسفات الذاتية، وتقديمها لبديل جديد، لذا فلا غرابة إن انتشرت البنيوية بشكل واسع في الستينات من القرن العشرين"[10].

إذًا، لا مناصَ من كون البنيوية فلسفةً انبثقت من فلسفات متنوعة جعلتها تبرزُ كمشروع أو كتيارٍ له ضوابطه وحدوده واستراتيجيته، ولعلّ أبرز هذه الفلسفات، الفلسلفة الظاهراتية، يقول جاكبسون: "إنهم يأخذون اليوم على التيار البنيوي في علم اللغة العام، هذا التيار الذي وُلد في مؤتمرات دولية عُقدت حوالي سنة 1930م، أنّه جهل الفلسفة، في حين أنّ الواقع غير ذلك، إذ أنّ دُعاة الحركة البنيوية – وهم من كلّ الأمم- كانوا على صلة وثيقة وفعلية مع الفينومينولوجية في صيغتها الهيجلية"[11].

إنّ الطّرح الفلسفيّ والفكريّ الذي يقربُ إلى الصواب والمنطق هو ذاك الذي يربط فلسفة البنيوية بالفكر الفلسفي الوجودي، الذي أسفرَ على نتيجة مفادُها أنّ البنيوية يمكنُ أن تكونَ بديلًا عن الوجودية، ذلك أنّ هذه الأخيرةَ قد مثّلت "شكلا متطرفًا من النزعة الفردية، فقد شدّدت اللهجة على الذاتية وعلى مسؤولية الإنسان، وقلق الاختيار الإنسانيّ، وفي المُقابل ضحّت الوجودية بالعقلاني والموضوعي والصرامة العلمية، لذلك تقلّص نفوذُ الوجودية عندما طرحت مسألة البنية"[12].

إنّ عصر البدائل الذي نعيشهُ يفرضُ علينا أن نتجاوز الكثير من الطّروحات الميتافيزيقية ، فالبنيوية ليست هي الوجودية ولا العكس، وعلى الرغم من صلة بعضهما ببعض إلا أنّ هناك مجموعة من الفروقات الجوهرية بينهما تجعلانها مختلفتين، ولنوضح ذلك نورد قول عمر مهيبل: "ففلسفة ساتر فلسفة اختيار، فلسفة حرية، فلسفة إنسانية تاريخية، أما البنيوية ففلسفة لاإنسانية، لاتاريخية، لا دور للذات في إطارها، أي فلسفة إكراه يُمارسهُ النّسق أو النّظام الضابط للبنية"[13].

لعلّ الاختلاف القائم بين الفلسفتين الوجودية والبنيوية، يكشفُ الصّراع القائم بين فكرين فرنسيين اثنين؛ الأول متمثّلا في فكر "سارتر" للوجودية، والثاني في فكر "فوكو" حاملًا للواء البنيوية. وعليه ستبقى البنيوية المشروع الحداثي الذي يمثّل العصرنة حقّ التمثيل، وهو بمثابة بديل للوجودية طالما انتشرت بشكل واسع وكبير، سواءً في الثقافة الغربية أو العربية على حدّ السّواء.

لقد حاولت البنيوية تحرير الإنسان من عبودية الفلسفات الأخرى، ويبدو ذلك من خلال مقولة "موت المؤلّف" عند بارث وفوكو، وربما هي إشارة إلى نهاية الميتافيزيقا الغربية التي تعود إلى أفلاطون وديكارت وأصحاب النزعة العقلية، الذين نادوا بسجن العقل أو الذات العارفة. وقد نهج سبيلهم في هذا الطّرح ثلّةٌ من النقاد والمفكرين العرب، أمثال عبد السلام المسدي، الذي صرّح قائلا: "لكنّ أهمّ مميّز يمكن لنا اليوم أن نستنبطه من خصوصيات البنيوية على صعيد القراءة النظرية، هو الموقع الجديد الذي احتلّه الإنسان ضمنها. فالفلسفات المألوفة كانت دائما – حسب تقديرنا- تنطلق من شيء ما هو واقعٌ خارج الإنسان لتنتهي إلى شيء ما يتجاوز حدود الإنسان، بعد أن تكون قد غاصت في عالم

الوجود عبر الكائن البشري. فالإنسان من حيثُ هو بذاته قد كان دومًا واسطة العقد في القلق الفلسفي، ولكنه لم يكن في حدّ نفسه علّة وجوده ولا غاية مطافه"[14].

إذًا، وبهذا التصور، يتراءى أنّ البنيوية تتجاهل النزعة الإنسانية، وتتبنى الفكر الحر، لكن سرعان ما أوضح جان بياجيه هذا التجاهل وبيّن حقيقة وماهية النزعة الإنسانية، لمّا ردّ على اتهامات غارودي، حيث يعتقد "بياجيه" أنّه "اتهام مبنيّ على سوء فهم بمعنى النزعة الإنسانية، ذلك لأنّ مُوجّهي هذه التهمة يتعرّفون الذات الإنسانية على طريقتهم الخاصة، ثم ينعون على البنائية أنّها تهدمُ هذا الذي يرون أنه تلك الذات، وحقيقة الأمر – في رأي بياجيه- هي أنّ البنائية تُفرّق بين: الذات الفردية – التي تتخذها البنائية موضوعا للبحث على الإطلاق، وبين الذات المعرفية، أي تلك النواة المعرفية التي تشترط فيها الذوات الفردية كلّها على مستوى واحد"[15].

أشرنا فيما سبق إلى أنّ البنيوية لم تأتِ من العدم أو الصّدفة، وإنما كانت نتاجا لتراكمات معرفيّة وإبستمولوجية، وبالتالي تَشَكَّلَ هذا المشروع، وتأسسَ بناءً على أصول وجذور تمتدّ في عمق التراث الفكري الغربي، الذي كان هذا الأخير منهلًا أو رافدًا بارزًا في تشكيل فلسفات الغرب وتصوّراته. ولكن بهذا التصوّر يمكن طرح التساؤل الآتي: إذا كانت للبنيوية أصولٌ أو جذور فلسفية تأسّست وفقها، فهل هذا ينفي صلتها بالنّقد الأدبيّ وعلم اللغة الحديث أوما يُعرف باللسانيات؟ وإلى أيّ حد أسهمت اللسانيات وبخاصة السوسيرية في نشأة البنيوية أو المنهج البنيوي؟

2/ البنيوية من منظور الفكر النّقديّ:

إنّ التطور المعرفي لدى الإنسان قد مرّ - منذ القدم- بتطوّرات و تحوّلات متفاوتة، وارتبط بمجموعة من العلوم كعلم النفس، وعلم الاجتماع وعلم الجمال، ناهيك عن صلة كلّ هذه العلوم بالفلسفة، أو بجانب من جوانبها، ولكنّ البنيوية بطرحها الفلسفي سعت لتحرير الإنسان وعَزَلَتْهُ عن الأشياء، وفي هذا نوعٌ من الإفراط والمبالغة، وبخاصة في التعامل مع النصوص. وبالتالي فإنّ البنيوية "وإن حرّرت الإنسان من سجن العقل، وأبعدته عن أن يكون مرجعًا للفلسفة العقلية في سعيها لبلوغ اليقين، جعلته حبيس أنساق النّصّ، إذْ وإنْ ادّعى أنّه يُحلّل النّصّ لكنّه يبقى خاضعًا لبناه، ولا يحقّ له أن يُضيفَ شيئًا من عندياته، فأين إذن هي الحرية؟"[16].

لقد جاءت البنيوية كمشروع حداثي لتثورَ على الفكر الكلاسيكي الذي ينظرُ إلى النّص من زواياه الخارجية أو المؤثرات والظروف التي تحيط به. إذْ إنّ معالجة النصوص محدودية التأويل، ضيّقة الدلالة، وعليه سعت للتعامل مع النصوص من داخلها، ولعلّ سبب هذا التّحولّ هو التأثّر بالنزعة الوضعية والعلوم التجريبية، وبالتالي تجريد النّص واستقلاليته عن العالم الخارجي. وهذا ما تبنّاه "بارث"، مُعلنًا موت المؤلف، وميلاد القارئ، يقول علي حرب موضحًا هذا التحول: "... في الرؤية الكلاسيكية ذات الطابع الماورائي واللّاهوتي، والصادرة عن نزعة الإنسان المركزية، لا مجال للحديث عن استراتيجية النصوص، وحدها الذات الإنسانية في هذه الرؤية هي مصدرُ الرغبة والفعل، وهي التي تتخذُ التدابير والإجراءات، وتضعُ الخطط والاستراتيجيات. ولكن النقد، نقد الذات والنّص، زعزع مثل هذه الرؤية بتفكيكه لمفهومين، الأول: هو مفهوم التمثّل، والثاني: هو مفهوم التمثيل لقد كشف النقد أوّلا أنّ الذات ليست بريئة من تمثلاتها للعالم والأشياء، إذ يقوم بينها وبين الموضوعات، بل بينها وبين ذاتها عالم من الرغبات واللعونات والصّور والاستفهامات... وكشف ثانيا أنّ الخطاب ليس شفافًا في تمثيله لعالم المعنى..." [17].

يُشير هذا النص إلى التعمّق في القراءة، والبحث فيما هو مسكوت عنه أو مُضمَر بين السطور في النص أو الخطاب، وعليه،لا بدّ من دراسة البنية العميقة للنص، والولوج في أعماقه، لاستنطاقه وتفكيك شفراته و رموزه، فللنصّ فراغات، ولا بدّ للقارئ من ملئها، ولا يتأتّى ذلك إلا بالتعامل مع النصوص عن طريق الخبرة والتّمرّس والتّمرّن لمرات كثيرة.

إنّ فكرة موت المؤلّف التي تبنّاها البنيويّون، وعلى رأسهم بارث، تمخّضت من رحم فلسفة "نيتشه" في قضية موت الإله، وبالتالي فبارث سعى لنقل هذه الفلسفة إلى مجال الأدب، ليغيّر بذلك الموازين والقواعد بين النص والقارئ، حيث أصبح للقارئ الدور الكبير في كيان النص وتأويله، بمعنى أنّ النّص حين يُولدُ يموت المؤلّف، وعليه فإنّ "موت المؤلف يعني رفض فكرة وجود معنى نهائي أو سرّي للنّص، بل رفض وجود الله ذاته وثالوثه: العقل والعلم والقانون"[18].

يبدو من خلال هذا الطرح أنّ دورَ القارئ قد تبدّل، فبعد أن كان مجرّد مستهلك للكلمات أصبح فعالا في اللعب بها، وبالتالي فهو بمثابة مبدعٍ ثانٍ يحاولُ تأويل النص من

خلال تعددية القراءة. لكن السؤال الذي لابدّ من طرحه هنا هو: ما خلفية تعددية القراءة هذه، وما سرُّ فكرة موت المؤلف ؟

إنّ الإجابة عن هذا السؤال تستدعي منّا استحضار قول روجيه غارودي الذي يُرجع سبب ذلك إلى الفيلسوف "نيتشه"، الذي نادى بمبدأ الشكّ، حتى في كلّ موجود على هذه الأرض، يقول غارودي: "ولعلّ الذي جعل الفيلسوف يحظى بمكان الزعامة في مسرح الفكر الفلسفيّ للقرن العشرين، هو نزعة الشك التي اتّصفت بها أفكاره، ومفهومه للحقيقة، ودعوته إلى تفكيك العقل الغربيّ القائم على اللوغوس، وإعلانه عن "موت الإله" كتمهيد لإعلان "موت المؤلف" فيما بعد عند فوكو وبارث في إطار فلسفة موت الإنسان"[19].

إذًا، وبناءً على هذا الطرح الفلسفي، فإنه ينقلنا هذا من فلسفة موت الإله إلى قضية موت المؤلف، وبالتالي إلى إبراز دور القارئ في تأويل النصوص وتعدّد دلالاتها واحتمالات معانيها، وهي دعوةٌ من ناحية أخرى إلى انغلاق النّص، وإشراك القارئ في إنتاج الدلالة والكشف عن المستور والمخبوء. وعليه فإنّ "شرط القراءة وعلّة وجودها أن تختلف عن النّص الذي تقرأه، وأن تكشف فيه ما لا يكشفه بذاته أو لم ينكشف فيه من قبل. وأمّا القراءة التي تقول ما يريدُ المؤلّف قولَه، فلا مُبرّر لها أصلًا، لأنّ الأصل هو أولى منها ويعني عنها إلا إذا كانت قراءة تدّعي أساسًا أنها تقول ما لم يُحسن المؤلّف قوله، وفي هذه الحالة تغني القراءة عن النّص وتصبح أولى منه"[20].

ولا مناص في أنّ كلّ قراءة للنص تعدّ تمهيدًا لقراءة أخرى، وليس شرطًا الاعتماد على ما ذهب إليه النّصّ، فربّما توجدُ دلالات لا نستطيع الولوج إليها إلا عن طريق محاورة أنساق النص لإنتاج دلالات أخرى. وهكذا... حتى يصبح النّصّ منفتح الدلالة، وربّما ينتهي بدلالة غير الدلالة المُصرّحة فيه. وتحقيق ذلك يحتاج إلى قارئ بارع متمرّس على مداعبة النصوص وتفجير طاقاتها.

خاتمة:

يبدو ممّا سبق أنّ البنيوية انقلابٌ على بعض الفلسفات، وبديلٌ في عصر البدائل، تمسّكت بمبدأ صريح وجليّ، وهو رفض فلسفات الذات. ويمكن النظر إليها من منظور فلسفي وعلى أساس قاعدتها الفكرية والإيديولوجية، وبالتالي هي لم تنشأ من فراغ أو برزت إلى الوجود اعتباطًا، وإنّما كانت نتاجًا لتراكمات معرفية وإنجازات العقل والتفكير العلميّ

والفلسفيّ، ولمّا كان الأمر كذلك، فقد صَعُبَ نقلها إلى البيئة العربية، وما هو منقولٌ منها ما هو إلا مُجرّد جهودٍ يُمكنُ الأخذُ بها أو ردّها تمامًا.

كما يُمكن النّظر إلى البنيوية من الزاوية النّقدية، فهي منهج نقديّ نسقيّ يتعامل مع النصوص الأدبية، فيستنطقها ويفكك شفراتها اعتمادا على بنيتها الكلية بعد النّظر في علاقة عناصر أجزائها أو بنياتها الصغرى ومعرفة وظيفة كلّ جزء، وبالتالي هي تبحث في الجانب الشكلي للنّص أي الاعتماد على بناء وصياغة اللغة داخل النّص. وهنا لابد من الإشارة إلى صلتها باللسانيات الحديثة التي تُعد البحر الذي غرفت منه معظم المناهج النسقية بما فيها البنيوية.

*** *** ***

الهوامش:

[1]- ميشال فوكو، البنيوية والتحليل الأدبي، تر: محمد الخماسي، العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت/باريس، ع1، شتاء 1988، ص 15.

[2]- فؤاد زكرياء، آفاق الفلسفة، المركز الثقافي للطباعة والنشر، دار التنوير، بيروت، ط1، 1988، ص 277.

[3]- المرجع نفسه، ص 277.

[4]- المرجع نفسه، ص 277، 278.

[5]- عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة، دار المعارف، الإسكندرية، 1989، ص أ من المقدمة.

[6]- المرجع نفسه، ص أ من المقدمة.

[7]- فؤاد زكرياء، آفاق الفلسفة، ص 281.

[8]- عبد الغني بارة، المسارات الابستمولوجية للبنيوية، قراءة في الأصول المعرفية، مجلة فصول، مصر، ع 64، 2004، ص 51.

[9]- المرجع نفسه، ص 52.

[10]- الزواوي بغورة، المنهج الفلسفيّ، بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقيات، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2001، ص 52.

[11]- رومان جاكبسون، العلاقة بين علم اللغة والعلوم الأخرى، تر: أنطوان مقدسي، في الاتجاهات الرئيسية في البحث والعلوم الاجتماعية، مج2، جامعة دمشق، 1976، ص 242.

[12]- الزواوي بغورة، المنهج الفلسفي، ص 54.

[13]- عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1991، ص 34، 35.

[14]- عبد السلام المسدي، قضية البنيوية – دراسة ونماذج-، دار الجنوب للنشر، ط2، تونس، 1995، ص 28، 29.

[15]- فؤاد زكرياء، الجذور الفلسفية للبنائية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الأولى، 1980، ص 58.

[16]- عبد الغني بارة، البنيوية بين النموذج اللساني والمعنى الفلسفي، "المبرز"، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، فيفري 2002، ص 149.

[17]- علي حرب، النص والحقيقة –نقد النص-، المركز الثقافي العربي، ط3، 2000، الدار البيضاء، ص 18.

[18]- يُنظر، جون ستروك، البنيوية وما بعدها، من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، فبراير 1996م، ص 105.

[19]- روجيه غارودي، البنيوية –فلسفة موت الإنسان، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1979، ص 28.

[20]- علي حرب، النص والحقيقة، نقد النص، ص 20.

قائمة المراجع المعتمدة:

1) جون ستروك، البنيوية وما بعدها، من ليفي شتراوس إلى دريدا، ترجمة: محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، فبراير 1996م.

2) روجيه غارودي، البنيوية –فلسفة موت الإنسان، ترجمة: جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط1، 1979.

3) رومان جاكبسون، العلاقة بين علم اللغة والعلوم الأخرى، تر: أنطوان مقدسي، في الاتجاهات الرئيسية في البحث والعلوم الاجتماعية، مج2، جامعة دمشق، 1976.

4) الزواوي بغورة، المنهج الفلسفيّ، بحث في الأصول والمبادئ والتطبيقيات، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، ط1، 2001.

5) عبد السلام المسدي، قضية البنيوية – دراسة ونماذج-، دار الجنوب للنشر، ط2، تونس، 1995.

6) عبد الغني بارة، البنيوية بين النموذج اللساني والمعنى الفلسفي، "المبرز"، المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية، الجزائر، فيفري 2002.

7) عبد الغني بارة، المسارات الابستمولوجية للبنيوية، قراءة في الأصول المعرفية، مجلة فصول، مصر، ع 64، 2004.

8) عبد الوهاب جعفر، البنيوية بين العلم والفلسفة، دار المعارف، الإسكندرية، 1989.

9) علي حرب، النص والحقيقة –نقد النص-، المركز الثقافي العربي، ط3، 2000، الدار البيضاء.

10) عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1991.

11) فؤاد زكرياء، آفاق الفلسفة، المركز الثقافي للطباعة والنشر، دار التنوير، بيروت، ط1، 1988.

12) فؤاد زكرياء، الجذور الفلسفية للبنائية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الأولى، 1980.

13) ميشال فوكو، البنيوية والتحليل الأدبي، تر: محمد الخماسي، العرب والفكر العالمي، مركز الإنماء القومي، بيروت/باريس، ع1، شتاء 1988.